مقوّمات الحضارة العربية في العصر الجاهلي

إعداد

أ.د. خليل عبد ساتم الرفوع

الجامعة القاسمية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية وآدابها

مقوّمات الحضارة العربية

في العصر الجاهلي*

خليل عبد سالم الرفوع

قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الجامعة القاسمية

الإيميل : drkhalil678@gmail.com

الملخص

كان العرب أمّة تعيش في رقعة جغرافية بين حضارتين عظيمتين ، هما الفرس والروم ، وكان يحكمها نظام قبلي صارم وقيم أخلاقية وعادات متوارثة ، ونظم اجتماعية قائمة على حكام يُرجع إليهم في المُنَافرات والمواريث والدم وغيرها ، وفيها ديانات سماوية ووثنية متوائم أتباعها ، وقد كان شعرهم أعظم منجز حضاري استودعوا فيه مشاعرهم وحياتهم وتاريخهم وإنسانيتهم ؛ فالديانات المتعددة وشعورهم بأنهم أبناء حضارة عريقة ومجاورتهم الفرس والروم ورقي لغتهم الشعرية بدت مكونات تضافرت معًا لإنتاج ثقافة عربية تجاوبت من بعدُ مع الإسلام الذي يدعو إلى التأمل في الكون والتدبر عقليًّا في تفاصيل مسيرة الإنسان واقعًا وغيبًا مما كان له الأثر في نشوء الحضارة العربية الإسلامية.

الكلمات المفتاحية : مقوّمات - الحضارة – الجاهلي - المُنَافرات .

* أنجز هذا البحث خلال إجازة التفرغ العلمي الممنوحة لي من جامعة مؤتة للعام الجامعي ٢٠٢٢/٢٠٢١م

Elements of Arab civilization

In the pre-Islamic era

Khalil Abd Salem Al-Rafoua

Department of Arabic Language and Literature - College of Arts and Humanities - Al Qasimia University

Email :drkhalil678@gmail.com

Abstract

The Arabs were a nation living in a geographical area between two great civilizations: the Persians and the Romans. It was governed by a strict tribal system, moral values and inherited customs. It was ruled by leaders who judge in disputes, inheritance, blood, and others. It had monotheistic and pagan religions whose followers coexisted. Their poetry was the greatest civilized achievement in which they entrusted their feelings, life, history, and humanity. Their diverse religions, their feeling that they are the children of an ancient civilization, their proximity to the Persians and the Romans, and the sophistication of their language seemed to be components that came together to produce an Arab culture, which was compatible with Islam. Islam calls for contemplation of the universe and mental reflection on the details of the human journey. This had an impact on the emergence of the Arab-Islamic civilization.

Keywords: Elements - civilization - pre-Islamic - repulsions.

تمهيد

كان العرب قبل الإسلام يقطنون رقعة تمتد من المحيط الهندي جنوبًا إلى شمال العراق شمالا ، ومن الخليج العربي وبحر عُمَان شرقًا إلى البحر الأحمر الذي عرف ببحر القُلْزُم غربًا ، فهذه هذه المساحات العريضة الواسعة تتباين في تضاريسها ومناخها وبيئاتها ، وهذا أثر في التكوين الاجتماعي والثقافي والديني والفكري للعرب، ويمكن أن ينظر نظرة أخرى إذ كان هناك ما يسمَّوْنَ الحَضَرُ ، وهم : أهل القرى العربية والمراكز الحضارية في اليمن والحِيْرة ومكة ويثرب والطائف ويطلق عليهم أهل المدر ، أي سكان البيوت الطِّينية ، ومعيشتهم من التجارة والزراعة والصناعة والصيد البحري ، وأمَّا البدو وهُم الذين يسكنون على أطراف الحضر معتمدين في رزقهم على رعي الضأن والمعز ، وهناك الأعراب الذين يسكنون في جوف الصحراء ، ويعيشون على مصدر اقتصادي وحيد هو رعي الإبل ؛ ولكل بيئة من هذه البيئات ظروفها الاجتماعية والتاريخية والجغرافية والاقتصادية ، لكن ما يجمع هذه المكونات هو ذلك النظام القبلي أو العُرف القبلي الذي ينظم علاقاتهم الداخلية والخارجية فكان الانتماء القبلي أشد ضروب الانتماء وأحكمها.

وأما من حيث الامتداد التاريخي فهناك ما يسمى الجاهلية الأولى التي لا نعرف عنها كثيرا ، لكنها امتازت بنتاجها في فن العمارة كثمود وعاد وتدمر والأنباط وسبأ وحِمير ومعين ، وهناك ما يسمى الجاهلية المتأخرة وهذه تمتد من مائة وخمسين أو مائتين إلى مجيء الإسلام ، وأخلص من خلال ما تقدم ما يلي:

١. لم يكن هناك تاريخيًّا في العصر الجاهلي مفهوم الأمة العربية وتفرعاته من قومية أو عروبة ، فقد كان العرب قبائل لم تتوحد سياسيًا في حكومة

واحدة جامعة ، وكان هناك ممالك محلية قطرية في اليمن والحيرة ودومة الجندل وبلاد الشام لكنها لم تسع لتوحيد العرب جميعًا بأيةِ وسيلة.

٢. أن النتاج الحضاري المادي وُجدَ في أطراف البلاد العربية في الجاهلية القديمة ، وتمثل في فن العمارة في صنعاء وعدن وغيرها من بلاد اليمن وفي العراق ومنها قصرا الخورنق والسدير ، وبتراء حيث الأنباط ، وهي مظاهر مادية تكشف عن قدرة في التخطيط العمراني ، وتنظيم هندسي متقدم آنذاك.

٣. أن النتاج الثقافي الفكري وجد في قلب البلاد العربية (نجد وما حولها وساحل الخليج العربي من مسقط إلى البصرة) في الجاهلية المتأخرة قبيل الإسلام ، وقد ظهرَ ذلك في الشعر وهو نتاج فني عقلي عاطفي تصويري لغوي مُمَوْسَق يشف عن عمق في الفكر والخيال والتجربة الإنسانية ، وكأنه أُعِدَّ ليكون الحاضن الأمين للعقل العربي بامتياز.

٤. أنَّ العرب قبل الإسلام يرجعون في نسبهم إلى فرعين هما : اليمانيون أو القحْطانيون والعدنانيون أو النزاريون أو المُضَريون أي إلى أصلٍ جامعٍ أو أرومة واحدة ، ثم تفرقوا في بيئات جغرافية متقاربة متجاورة عبر أزمنة تاريخية ؛ ولذلك فقد جمعت بينهم أواصر ثقافية ميزتهم عن غيرهم من الشعوب ، وهي مكونات امتدت بعد أن جاء الإسلام فقوّى بعضها وألغى كل ما يتضاد مع الطبيعة الإنسانية ؛ فكان الإسلام نظاماً شامِلا ومحدِّدًا ثقافياً حضاريا في آن معاً ، ويُقصَدُ بالثقافة في هذا السياق " نظام الحياة الذي يعيش بموجبه شعب من الشعوب ، أي أنه يشمل العادات والمفاهيم وقواعد السلوك والعقائد والنظم والمؤسسات "[١] ، لذلك فالثقافة بمفهومها الحديث : " تعني ذلك الكل المركب الذي يحتوي على المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون ، وكل القدرات والعادات التي حصل عليها

الإنسان في المجتمع "[٢] ، وهي منظومة جامعة ، وقد كشف ذلك الشعر عن كثير من مظاهر الحضارة العربية آنذاك كالعمارة والصناعة والزراعة والتجارة والصيد البحري ومعرفة الأنواء والنحت والطب البدائي والبيطرة والقِيافة والفِراسة.

مُقَوِّمات الثقافة العربية :

أولاً- الديانات العربية : من مسيحية ويهودية ووثنية ومجوسية وحَنَفية والمظاهر الطبيعية من عبادة للكواكب والنجوم والملائكة ، ولكل ديانة طقوسها ومعابدها وكهانها وثقافتها وتاريخها ، ولاشك أن التوراة بما فيها من تأريخ وروايات لأحداث تاريخية ، والإنجيل بما فيه من قيم أخلاقية تسامحية ترقى بالنفس الإنسانية تفكيرًا وسلوكًا كانا محملين: ثقافةً مادية تخيلية محفزة للنشاط العقلي ، وقد انتشرت في بلاد العرب ديانات كان لها أثر في التنوع الفكري والامتداد الحضاري مادِّيًّا وأدبيا[٣]:

١- اليهودية: لقد جاء اليهود إلى بلاد العرب بعد أن طردهم قياصرة الروم، وقد هَوَّدوا أحدَ ملوك التَّبابعة في اليمن وهو ذو نواس ، فنكَّل – بتحريض منهم – بنصارى نَجْران وحرّقهم بالأخدود وذكرت قصتهم في القرآن في قوله تعالى:" قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ)٥ (إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ)٦ (وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧)"[٤] ، ثم دار التاريخ دورته فقضى النصارى على ذي نواس سنة ٥٢٥م بإيعاز من بيزنطة.

واستوطن في يثرب وخيبر ووادي القرى وتيماء قبائل بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع وبنو بهدل ، وكان ليهود في يثرب دور في الإيقاع بين قبيلتي الأوس والخزرج فوقعت بينهم أيام وحروب مستمرة كان آخرها

يوم بُعَاث ، حتى جاء الإسلام فأنقذهم من كيدهم وأنقذ يثرب كذلك منهم، وانتشر اليهود في بيئات أخرى هي: أيلة والطائف واليمن[٥] ومن أشهر شعرائهم السموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق ويُضرب به المثل بالوفاء ، ومن أشهر شعرائهم في الإسلام كعب بن الأشرف، واصطنعوا العربية لغة وكانوا يقرؤون التوارة بلغتهم القديمة العبرية ويتدارسون دينهم في دار ندوة لهم تسمى المَدارس، وقراءة التوراة وتدوينها وما اشتملت عليه من أحداث تاريخية بعضا صحيح وبعضها محرف كان له أثر في تشكييل العقل للعرب اليهود ومَنْ صَاقبهم .

٢- النصرانية : كان من أهم الأسباب في انتشارها في بلاد العربية البعثات الدينية التبشيرية التي يشجعها القياصرة ، وانتشرت في اليمن ومن أشهر كنائسها : نجران والقُلَيْس التي بناها أبرهة الحبشي قي صنعاء لجعل العرب يحجونها ويفدون إليها لتكون مركزا اقتصاديا بديلا عن مكة الوثنية ، وشاعت في الشام بين الغساسنة وقبائل قضاعة وعاملة وجذام وكلب ، وانتشرت في العراق فذاعت بين العِبَاديين في الحيرة وغيرهم من قبائل تغلب وإياد وبكر وآمن بها النعمان آخر ملوك المناذرة.

وكانت منتشرة في طيء في حائل وجبلي أَجَأ وسَلْمى ، ودُومة الجندل، وكان في يثرب بعض النصارى ، وكان الرقيق الحبشي في مكة وغيرها من النصارى ، وفي الشعر الجاهلي ذكر لكنائسهم ومحاربهم وصلبانهم ونواقيسهم وأعيادهم كعيد الشَّعَانين الذي يسميه النابغة الذبياني السبّاسب في قوله[٦]:

رِقاقُ النِّعالِ طيِّبٌ حجزاتُهم يُحيَّون بالرَّيْحانِ يومَ السَّباسبِ

وفي الشعر الجاهلي تصوير لرهبانهم ، وأبرز شاعر عُرف بالنصرانية في العصر الجاهلي هو عَدي بن زيد العِبادي الذي ذكر في شعره أسماء

وألفاظا نصرانية ، وكان بعض العرب يقرأ الإنجيل ويفهم ما فيه من آيات تحث على الأخلاق وتطهير النفس من الأدران ، شيوع النصرانية في كثير من القبائل كان مقوِّما سلوكيا وعقليا وحضاريا للذين آمنوا بهذه الديانة ولمن كان مجاورا لهم.

٣- الوثنية وديانات أخرى: لم تكن الوثنية تعني في العصر الجاهلي عبادة الأوثان والاعتقاد التام بها فقد كان بعض العرب يهزأُ بها ويسخر منها ، ولم يكونوا يؤمنون بأن الأوثان والأصنام خالقة ، بل كانوا يشركونها في وحدانية الله ، وقد جاءت آيات تدل على إيمانهم بالله الخالق القوي كقوله تعالى:" **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ(38)** "[٧] فكانت الأوثان في اعتقادهم تقربهم إلى الله وتشفع لهم عنده ، وعبر عن هذا القرآن الكريم في قوله تعالى:" **أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣)**" [٨].

وقد عبر أوس بن حجر عن هذا الاعتقاد الذي يتمثل في الإيمان بالله الذي هو أكبر من تلك الأصنام في قوله[٩]:

وباللَّاتِ والعُزَّى ومن دانَ دِيْنَها وباللهِ إنَّ اللهَ منْهُنَّ أكْبَرُ

وكان عرب الجنوب يعبدون ثالوثًا مقدسًا هو القمر أو وَدّ ، والشمس أو اللات ، والزهرة أو العزى ، وكان معبد اللات في الطائف

وكان صخرة مربعة بنت عليه ثقيف بيتا ، وكانت مناة صخرةً منصوبة على ساحل البحر بين مكة والمدينة ، وهي رمز إلى إله الموت وكانت معظّمة عند الأوس والخزرج وخُزَاعة وهذيل.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أصنام كان يعبدها قوم نوح في قوله تعالى: قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا)٢١ (وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا)٢٢ (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (**23**) "[١٠]، فهذه الأصنام قديمة عبدها قوم نوح حيث كانوا يسكنون العراق ، وقد نقلت إلى عرب الجزيرة ، فكان ودّ على صورة رجل بدومة الجندل ، وسُواع على صورة امرأة وكان صنم هُذَيل وكِنانة، ويغوث على صورة أسد وهو صنم مَذْحَج وعشائر من مُراد وهَوازن ، ويَعُوق على صورة فرس وهو صنم همدان وخولان ، ونسر معبود حمير وكان على هيئة نسر.

ومن أصنامهم الأخرى إساف ونائلة ، ويقال : إنهما كانا شخصين أتيا بفاحشة فَمُسِخَا حجرين ، وذو الخُلَصة وهو صنم خَثْعم وبَجيلة وأزد السراة، وذو الشرى وكان له معبد ضخم ، وكان أعظم هده الأصنام هُبَل صنم قريش وكان في جوف الكعبة ، وكانوا يضعون عند هذه الأصنام أنصابًا من الحجارة يسفكون عليها دماء ذبائحهم وقرابينهم ويقدسونها ، وكانوا يحجون هذه الأصنام أو بيوتها ويطوفون بها سبعة أشواط ، وكانت الكعبة حارسة الوثنية آنذاك، ولهم طقوس وشعائر في حجهم ، وأهمها الطواف والنحر والتَّلبية والسعي بين الصفا والمروة، وكانوا يقفون بعرفة ويفيضون منها إلى المزدلفة ثم إلى مِنى ، وجعلوا للحج أربعة أشهر معلومات ، سمُّوها الأشهر الحرم ، وهي : رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرَّم وكان الحج إلى الكعبة في ذي الحجة.

ومن المظاهر الطبيعية التي توجهوا إليها الشمس والقمر والكواكب التي جاءتهم من الصَّابئة والعرب الجنوبيين ، وفي القرآن إشارة إلى عبادة بلقيس وقومها للشمس(١١)، وقد نهى الله تعالى عن السجود للشمس والقمر والإيمان بالشِّعرى فقال تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩(38) " (١٢) ، وقال تعالى:" وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ(49) " (١٣) ، وتفشّت المجوسية في بعض القبائل العربية في عُمان والبحرين وبني تميم في العراق ، والمجوس يؤمنون بإلهين يدبران العالم هما: إله الخير وإله الشر.

وعرف في العصر الجاهلي طائفة ترفعوا عن عبادة الأوثان والتماثيل وغيرها وكانوا يتطلعون إلى دين إبراهيم عليه السلام ، وأطلق عليهم الأحناف، ولعلهم كانوا يرون أن الوثنية شوَّهت دين إبراهيم الذي كان حنيفًا مسلمًا ولم يكن من المشركين ، فكانت دعوتهم صادقة للخروج على الديانات المحرّفة والعودة إلى التوحيد الذي هو شرعه إبراهيم والأنبياء جميعا ومن أشهر أولئك الأحناف: زيد بن عمرو بن نفيل ، وقُسّ بن ساعدة وأمية بن أبي الصلت ، وورقة بن نوفل وغيرهم ليسوا بقليل.

وعلى الرغم من كثرة هذه الديانات إلا أنها لم تتغلغل في نفوس العرب، فلم نلحظ انتماءً حقيقيا للديانة بحيث تشن من أجلها الحروب ويبشر بها معتقدوها ، وكان الشعراء أبعد الناس عن تلك الديانات وأقربهم إلى ملذات الحياة فتأثيرها في الناس أكثر من تأثيرها في الشعراء ، فلم يُر في شعرهم صورة واضحة لدين أو معتقد ، وجل هذه الديانات مستجلبة من خارج الجزيرة العربية وهذا يؤكد قوة التفاعل الحضاري مع الأمم الأخرى.

وأُقَيِّدُ خلاصتين ثنتين :

١- أنه كان لتعدد الديانات في البيئات العربية أثر في شيوع طقوس تلك الديانات وشعائر معتنقيها وما فيها من عبارات وألفاظ تستخدم في معابدها وعلى ألسنة أتباعها ، فتعدد الديانات كان مقوّما ثقافيا وبخاصة أن أكثر الديانات انتشارا المسيحية واليهودية وهما يتلاقيان في كثير من أفكارهما ويصدران من نبع واحد.

٢- أن الوثنية أسهمت في توحيد بعض القبائل من خلال موسم الحج ، وما يستدعيه من طقوس ولقاءات في الأماكن المقدسة أيام الحج وفي الأسواق المختلفة من قبل ومن بعد. ولا ريب أن تلك اللقاءات توجب تلاقحًا معرفيا واجتماعيا واقتصاديا وشعريا ، وقد كان حج الكعبة مقتصرا على العرب دون غيرهم من الأمم فكان الانتماء للكعبة انتماءً حقيقيا ، وربما كان أتباع الديانات المختلفة يشهدون ذلك الموسم لأسباب أخرى غير دينية وأبرزها الدافع الاقتصادي.

ثانياً- الرسيس الحضاري:

لم يكن انتماء العربي للقبيلة إلا مؤكدا للانتماء الصريح لقحطان أو عدنان ؛ و" ذلك أن الإنسان العربي لم يستخدم جنسيته ليكوّن على أساسها وحدة شاملة تتناول عشائره جميعا فيصبح ذا شعب أو دولة رئيسية ، وإنما كان يعيش في أفق ضيّق غالبا هو القبيلة التي انطوت عليه وفني فيها "[١٤]؛ ولذا كانت كل قبيلة ترى نفسها أمة برأسها ، وأنها ذات تاريخ عريق يمد أبناءها بطاقة داخلية تمور دائما بعزة النسب " وهذا هو السبب فيما شجر بينهم من الغارات والحروب لكنهم بالنسبة للأجنبي أمة واحدة "[١٥] ، فقد كانت لفظة العرب وهي بمعنى التَّبدي والأعرابية في كل اللغات السامية تشمل أكثر العرب على اعتبار أنهم أهل بادية ، وأن حياتهم حياة أعراب ، ومن هنا غلبت عليهم وعلى بلادهم ، وأطلق لذلك كتبة اللاتين واليونان على بلاد العرب لفظة : (ARABIA) أي العربية بمعنى بلاد العرب[١٦].

" وعلى الرغم من تشتت العرب السياسي ، ربطت بينهم قبل الإسلام وحدة معينة في أفكار الديانة والعادات وجعلت منهم أمة واحدة "[١٧] ، وكان الانتماء العربي مظهرا مستترا وراءَ ستار العصبية القبلية يظهر حينما يمس العرب ، ويُذكر أنه حينما غضَّ كسرى من شأن العرب وفضل الأمم الأخرى عليهم رد عليه النعمان بن المنذر ملك الحِيرة مدافعا ، وذلك " بعزة العرب ومنعتهم وحسن وجوههم وبأسهم وسخائهم وحكمة ألسنتهم وشدة عقولهم وأنفتهم ووفائهم "[١٨].

وكانت اليمن موطنا لحضـــارات عريقة ظلت عالقة في ذاكرة العرب " فقد كان اليمنيون أهل تمدُّن ودولة لا تقل عن دول معاصـــريهم في آشـــور وفينيقة ومصـــر وفارس ؛ فابتنوا المدن وشـــادوا القصـــور والهياكل ، وتبســـطوا

في العيش مثلهم ، ولكن تمدنهم لم يكن حربيا كتمدن الأشـــوريين والفرس والمصـــريين بل كان تجاريا كتمدن الفنيقيين "[١٩] ، ويقرر الدكتور ناصـــر الدين الأسـد حقيقة تاريخية تتواءم مع معطيات الحضـارة العربية وسـيرورة حركتهم عبر الزمن والجغرافية فيرى أن لهم حضـــارة تليدة موروثة " وأن تليدهم هذا إنما كان حضارات متعاقبة وموصولة ذات حلقات ، أخذ بعضها برقاب بعضٍ بدأت منذ شاء الله لها أنْ تبدأ ، وانتهت قبيل الإسلام بزمن لا يعدو مائة أو خمسين ومائة من السنين وكان من ذلك الحضارات المعينية والسبئية والعادية والثمودية والنبطية التي ازدهرت في شمال الحجاز وجنوب الشام أربعة قرون، وزال سلطانها السياسي في القرن الثاني بعد الميلاد ، ثم الحميرية التي استطالت حتى أشرفت على أوائل القرن السادس للميلاد "[٢٠]، ولم يكن عرب الجاهلية منقطعين عن تاريخيهم القديم ، بل لعلهم كانوا نتاجه، وفي القرآن الكريم إشـارات إلى ذلك التاريخ تأتي في سـياق تذكيرهم ببعض ما فيه كقوله تعالى " قَدْ كَانَ لِسَـبَإٍ فِي مَسْـكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْـكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُـوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ(16) "[٢١] ، ويشير القرآن الكريم إلى فن البناء والصناعة التي تميز بها قوم عاد:" كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَـلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُـولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْـتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١)"[٢٢] ، ويذكر قوم ثمود ويشـير إلى احترافهم الزراعة والعمارة النحتية الفارهة" كَذَّبَتْ ثَمُودُ

الْمُرْسَلِينَ)١٤١ (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ)١٤٢ (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)١٤٣ (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)١٤٤ (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)١٤٧ (وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ)١٤٨ (وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ "[٢٣]، بل يصف القرآن الكريم قوم عاد بأنهم أصحاب العمارة التي لم يخلق مثلها في البلاد "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)٦ (إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) "[٢٤].

فهذه قبسات مما ورد في القران الكريم تنبئ عن جوانب من الحضارة العربية القديمة التي بلا ريب تسربت إلى حفدتهم ، وكانوا على علم ببعض أخبارها ، وذكروها في أشعارهم في سياق صروف الدهر وحوادث الأيام وما فعلته بأولئك الأقوام العظام ، يقول النابغة الذبياني[٢٥]:

ولقدْ أرَى أن الذي هو غالَهُمْ قد غالَ حِمْيَرَ قَيْلَها الصَّبَاحَا

وَالتُّبَعَيْنِ وذا نُؤاسٍ غُدوةً وعَلا أُذَيْنَةَ سَالبَ الأرْواحا

ويقول لبيد[٢٦]:

أوَلمَ تَرَيْ أنْ الحوادثَ أهلكتْ إرَمًا ورامتْ حِمْيرًا بعظيم

ويقول الأعشى[٢٧]:

ألمْ تَرَوا إرمًا وعادًا أوْدَى بها الليلُ والنهارُ

بادُوا فَلَمَّا أنْ تَآدوا قَفّى عَلى إثْرهمْ قُدَارُ

ويقول عدي بن زيد العبادي[٢٨]:

أين أهلُ الديارِ من قومِ نوحٍ ثم عادٌ من بعدِهم وثمودُ

وسادت في المخيال العربي آنذاك أنهم سادة يستندون إلى تاريخ عريق مما جعل هذه الرؤية مبثوثة في وجدان الأمة كلها والشعر الدال على ذلك كثير ، يقول جابر بن حُنَيّ التغلبي[٢٩]:

ألا تستحي منا ملوكٌ وتتقي محارمنا لا يَبْوُءُ الدَّمُ بالدَم

نُعاطي الملوكَ السِّلمَ ما قَصَدُوا بنا وليس علينا قتلُهُم بمحرَّم

وكائِنْ أزرْنا الموتَ من ذي تحيّةٍ إذا ما ازْدرَانا أو أسَفَّ لمَأثَم

وكان الشعراء يستحضرون في أشعارهم أخبار ملوك العرب وممالكهم والقبائل العظيمة التي أبيدت بعد مجدٍ وعزة ، يقول عمرو بن قميئة[٣٠]:

قد كان من غَسّان قبلك أمْ لاكٌ ومن نَصْرٍ ذوو نِعَمٍ

فتتوَّجُوا مُلْكًا لهم هِممٌ فَفَنَوا فنَاء أوائِل الأمم

لا تحْسِبَنّ الدهرَ مُخلدَكم أو دائمًا لكُمُ ولم يَدُمِ

لو دامَ لتبّعٍ وذوي الـ أصناعِ من عادٍ ومن إرم

ويشبه النابغة الذبياني أحلام ممدوحيه من ملوك الغساسنة بأحلام قوم عاد في الرزانة ، يقول[٣١]:

هُمُ الملوك وأبناءُ الملوكِ لهم فضل على الناس في اللأواء والنعم

أحْلام عَادٍ وأجْسَادٌ مُطَهَّرةٌ من المَعَقَّةِ والآفَاتِ والإثِم

ثالثاً – التوسط بين حضارتين:

كان لموقع شبه الجزيرة العربية دور في التلاقح الحضاري والثقافي مع الأقوام المجاورة وأهم تلك الأقوام :

أولا – الفُرس : ثمة صلات ربطت بين العرب والفرس من قبل التاريخ الميلادي "فقد أصبحت الجزيرة العربية مما يلي العراق من القرن التاسع قبل الميلاد مسرحا لملوك أشور يكتسحها الواحد بعد الآخر ، وقبائلها تؤدي الجزية ولو مؤقتا على غير نظام"[٣٢].

وساعد الفرس العرب على تأسيس إمارة الحيرة التي دامت أربعة قرون (٢٦٨-٦٣٣م)[٣٣] ، وكان الفرس يعجبون بالمناذرة؛ فقد أرسل يزدجرد الأول ابنَه بهرام جور إلى النعمان بن المنذر ليربيه تربية عربية ، وأمر ببناء قصر الخورنق له، وقد نازعه على الملك أخوه بعد وفاة يزدجرد فعاونه العرب وتعصبوا له فلما اعتلى عرشه لم ينسَ ما كان لعرب الحيرة من يد عليه فقربهم وأعلى شأنهم[٣٤].

وامتدت علاقة الفرس إلى مختلف القبائل العربية ، فكانت لهم تجارة تجوب أرجاء الجزيرة العربية وأسواقها ، لتصل إلى اليمن وهذا ما جعلهم يتصلون برؤساء القبائل ، ليضمنوا أمن القوافل وطرقها ، وكان ذلك الاتصال يحدث غالبا بطريق ملوك الحيرة[٣٥].

وقد أخذ نوفل بن عبد مناف العهد من الفرس لحماية قوافل قريش التجارية[٣٦] ، وكانت الحيرة معبرا للقوافل واللطائم الفارسية أثناء مرورها في

نظير جُعْل يأخذونه من الفرس ، وكان هَوْذةُ بن علي الحنفي سيدُ بكرٍ في اليمامة يُجير لطيمة كسرى في كل عام[٣٧].

ووفد على كسرى كثير من كبار التجار وسادة العرب أمثال: أبي سفيان وغيلان بن مُعتَّب الثقفي وحاجب بن زرارة سيد تميم ، وغيرهم[٣٨]. ولتقدم العلوم ببلاد فارس اختلف إليها بعض العرب طلبا للعلم والمعرفة ، كالحارث بن كَلدة الثقفي فتعلم هناك الطب والضرب على آلات الموسيقى[٣٩]، وكان ثمة جاليات فارسية في الحيرة ، والبحرين (ساحل الخليج العربي من البصرة إلى مسقط) ، وقد ذكر الخطيب البغدادي " أنه كان للفرس قرية يتجمع فيها رأس كل سنة التجار، ويقوم بها للفرس سوق عظيمة"[٤٠]، وكان تجار الفرس يقطعون البحر إلى المُشَقَّر بهجر التي تقام بها السوق في شهر جُمادى الآخر لتوافيَ بها العرب بعروضهم[٤١] وقد وصل بعض الفرس إلى يثرب كسلمان الفارسي[٤٢]، وإلى مكة كإحدى الإماء الفارسيات[٤٣].

وانتشرت المجوسية في المناطق المجاورة للفرس ، ولأبي الحسن المدائني كتاب اسمه: كتاب من تزوج فارسية[٤٤]، ومن الأحداث التاريخية في تاريخ العلاقات العربية الفارسية موقعة ذي قار ، التي نشبت بين قبيلة شيبان ومن ناصرهم من البكريين وبين الفرس ، وقد هُزِمَتِ الفرس فيها ، وكانت بداية أفول الإمبراطورية الفارسية[٤٥].

ومن الشعراء الذين عاشوا في فارس عَدي بن زيد العبادي الذي كان سفيرا للمناذرة في بلاط كسرى ، وللفرس صور كثيرة في الشعر الجاهلي[٤٦] ، فقد وُصِفوا بالعجم وبني الأحرار ، ووصفت نار المجوس بأنها تستعر استعارا ، وتحدث الشعر عن تيجان الأكاسرة ، وصراعهم على الملك ، ومصرعهم أمام الدهر ، ويُعدُّ العزيز الفارسي من أشراف الفرس وله قصور

معلقة ، وكان من نتائج موقعةِ ذي قار قتل الهَامرز قائد الفرس ، وقتل عددٌ كبير من جيشه، وأسر عدد آخر وسُبي من نساء الفرس عدد كثير، يقول الأعشى(٤٧):

قتلنا القَيْل هَامرْزًا وَرَوَّينا الكثيبَ دَما

واشتهر الفرس بالصناعات المختلفة منها : الأسلحة والألبسة والحلي، وآلات الموسيقى والخمر والصحائف التي ذكرها عنترة في قوله"(٤٨):

ألا يا دارَ عبلة بالطَّوِيّ كرجعِ الوَشْمِ في رُسُغِ الهَديّ

كوحي صحائفٍ من عهدِ كِسرى فأهداها لأعجمَ طِمْطِميّ

ولا ريب أن الحضارة الفارسية كانت متقدمة آنذاك موغلة في التاريخ، ولعلّ مجاورتهم العرب في بيئات عديدة جعل هؤلاء يقبسون بعضا من مظاهرها وبخاصة في العراق وسواحل الخليج العربي ، فالشعراء الجاهليين عبروا في شعرهم ببعضٍ من الألفاظ الفارسية وكان الأعشى أكثرهم التصاقا بالفرس وتعالقا بثقافتهم فقد وصف مجالس شرابهم والخمارين وسقاة الخمر وآلات الموسيقى والرياحين وسمّاها بأسمائها الفارسية ، وورد في شعره ست وستون كلمة فارسية ، ومن هنا فإن للفرس أثرًا في تشكيل العقل العربي معرفيا وحضاريًا قبل الإسلام وبعده.

ثانيا – الروم : كانت الدولة الرومانية تحيط ببلاد العرب من الشمال ، وشاعت فيها الثقافة اليونانية والرومانية ، والصلات يبن الروم والعرب قديمة " فقد أقام العرب في لبنان وفي سورية قبل الميلاد بزمن طويل ،

واشتغل قسم منهم بالزراعة وتحولوا إلى مزارعين مستوطنين وتولي حماية الطرق وحراسة القوافل التي تجتاح طريق الشام – تدمر – العراق[٤٩].

ويرى الدكتور: إحسان عباس أن السياسة الرومانية تجاه العرب مرت بمراحل ثلاث هي : مرحلة الفتح الروماني وعدم إزالة الأسر الحاكمة كالأنباط وتدمر، ثم مرحلة الضم وتبدأ باستيلاء الرومان على بترا سنة (١٠٦م) وقضوا على دولة الرُّها وتدمر عام (٢٧٤م) ، ومرحلة التحالفات ، وأهم حلفائهم : تنوخ وسليح (الضجاعمة) وغسان[٥٠].

وتعد غسان أقوى حليف للروم في العصر الجاهلي فقد دخلت غسان الديار الشامية سنة (٤٩٠م) ، وفيها الضجاعمة وغيرهم من العرب ، فلما احتاج الروم إلى نصرتهم استنصروهم وقربوهم[٥١] ، فتنصروا بتوالي الأجيال، وأصبح لهم شأن في حروب الروم والفرس[٥٢]. وكان لأمراء غسان منزلة سامية في مراتب الدولة البيزنطية ، ويذكر (بروكوبنيوس) في تاريخيه : أن الإمبراطور (يوستينباس) رقّى الحارث بن جبلة إلى رتبة ملك وبسط سلطته فوق قبائل عربية متعددة وأن غرضه من ذلك أن يقيم خصما قويا في وجه المنذر ملك عرب الفرس[٥٣].

وكان للقياصرة علاقات مع أساقفة نجران يمدونهم بالأموال لتشييد الكنائس وتعليم الصغار[٥٤] ، ويذكر الأصفهاني أن : " أمية بن أبي الصلت كان يلج الكنائس ، ويحاور رهبانها أثناء رحلاته إلى الشام[٥٥].

وكان تجار قريش يختلفون إلى الشام وأطراف الروم، وذلك بعد أن أخذ لهم هشام بن عبد مناف العهود من ملوك الغساسنة[٥٦] " فكانت القوافل التي تذهب من بلاد العرب إلى الشام تنزل في أسواق معينة عينتها لهم الحكومة الرومانية لتحصل منهم الضرائب المفروضة على الصادرات ولتراقب

الأجانب الذين يقدمون بلادها وكانت هذه القوافل أول ما تنزل في العقبة ومنها تذهب إلى غزة ، وهناك تتصل بتجار البحر المتوسط ومن غزة يذهب بعض التجار إلى بصرى[٥٧] التي يقيم بها حاكم روماني لأهميتها الحربية والسياسية"[٥٨] ، وتحدث الشعر الجاهلي عن ملوك الروم وما يُجبى إليهم من أموال ، يقول عدي بن زيد العبادي[٥٩]:

وكــان ملوكُ الرومِ يُجْبى إليهمُ قنــاطيرُ مــالٍ من خَراجٍ وزائــدِ

ومن الصــناعات الرومانية التي وصــفها الشــعر الجاهلي التِّرســة والمبارد ، ولعلَّ كثيرًا من العرب استخدموا الدينار الروماني وسموه الهِرْقَــلي يقول سحيم عبد بني الحسحاس[٦٠]:

أرتْكَ غداةَ البينِ كَفًّا ومعصما ووجهًا كدينارِ الهِرَقْليّ صــــارفا

ومن مظاهر الحضــــارة الرومانية من العمارة ، يقول علقمة الفحل مشبها أصوات الظليم والنعامة بتراطن أعيان الروم في قصورهم ، يقول[٦١]:

يُوْحِيْ إليها بأنقاضٍ ونقْــــــنقةٍ كمــا تراطنُ في أفــدانهــا الروم

ويبدو حضور الروم في الشعر الجاهلي قليلا مقارنة مع حضور الفرس، ولعل ذلك يرجع إلى خلوِّ بلاد الشام من الشعراء ، لذا لم أجد شعرًا كثيرًا يصف التأثير الحضاري بين الروم والعرب ، وعلى الرغم من ذلك فإن المجاورة تقتضي تلاقحا حضاريا ومعرفيا أفاد منه العرب من بعدُ حينما كانت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية.

ونخلص إلى أن وقوع بلاد العرب بين حضارتين عظيمتين قبل الإسلام مَكَّن العرب من التأثر والتأثير فيهما ، وهذا مستنتج بدهي في ضوء الجبرية الجغرافية التاريخية الممتدة على مساحة عريضة.

إن أممًا أخرى صاقبت العرب أو تعاملت معهم كالأحباش ونبيط العراق والهنود بيد أن التلاقح معهم لم يبلغ قيمة مؤثرة يمكن تتبعه والبحث فيه.

رابعاً – اللغة مُشَكِّل ونتاج :

كانت اللغة مكونا رئيسيا للثقافة بل كانت محفزا مهما لتوحيد القبائل في بيئاتهم المتباينة لتشكيل وجدانهم وأنماط تفكيرهم وأساليب تعبيرهم وما تمخض عن ذلك من عادات وقيم وتصورات ولهجات محلية ، لكنها توحدت على لهجة قريش لغة الشعر بسبب سلطة قريش الدينية والاقتصادية والتاريخية، وكان حج البيت وما يستدعيه من حراك اقتصادي العامل الحاسم في ذلك.

ولكن على الرغم من أن لغة الشعر الجاهلي تشير إلى لغة التوحيد " ويلاحظ أيضا وجوه الاختلاف بين لهجات القبائل ، فتحدث القدماء عن مدى اتفاق هذه اللهجات واختلافها وتلاقيها وتباعدها متخذين من تجاور القبائل وتصارعها وصلاتها التجارية والودية أسسا لهذا التحالف اللغوي الذي برز في الشعر كثيرا عند دراسة لهجة قبيلة معينة ، فغالبا ما يكون شعر الشاعر معرضا لعدة لهجات ولا غرو في ذلك فلغة الشعر كانت اللغة المنتقاة "[٦٢] ، وكانت تلك اللغة المنتقاة منتشرة في بلاد العرب آنذاك ، يقول المستشرق رينولد نيكلسون : "إذا وجدنا أن اللغة لا تجري على ألسنة الشعراء الجواليين وحسب، وكانوا عادة على جانب من الثقافة أو عرب الحيرة وكانوا مسيحيين بل تتداولها

ألسنة الرعاة واللصوص والبدو الغلاظ في كل البقاع إذا وجدنا هذا فليس ثمة داع للشك في أننا نسمع من خلال شعر القرن السادس الميلادي اللغة العربية التي كانت مستعملة في طول البلاد وعرضها "[٦٣].

ويقرر الدكتور شوقي ضيف انتشار اللغة ليس فقط في الحجاز وحسب "وإذن فنحن لا نعدو الواقع إذا قلنا أن لهجة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت في الجاهلية لا في الحجاز ونجد فحسب ، بل في كل القبائل العربية شمالاً وغربا وشرقا، وفي اليمامة والبحرين ، وسقطت إلى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن ، وخاصة في أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخثعم وهمدان وبني الحارث بن كعب في نجران ، ومما يؤكد ذلك أن الوفود اليمنية التي وفدت على الرسول عليه الصلاة والسلام لم يحدثنا رواة الأخبار والسيرة النبوية أنها كانت تجد صعوبة في التفاهم معه. وأيضا أنه كان يرسل إليهم دعاة يعظونهم ويعلمونهم الشريعة الإسلامية من مثل معاذ بن جبل، ولو أنهم لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى لكان إرسال هؤلاء الدعاة عبثا ، وكل هذه دلائل تدلُّ على أن حركة تعريب واسعة في الجنوب حدثت قبيل الإسلام "[٦٤].

والإشارة إلى انتشار العربية في اليمن وجوارها يشف عن ملحظ دقيق وهو أنها كانت لغة الممالك اليمنية المتتابعة كما كانت كذلك في الحيرة والشام، وهذا يعني أنها استودعت التاريخ القديم وألفاظ الحضارة والتجارب الإنسانية عقلا ووجدانا لأولئك الأقوام ، ولو كان في تلك المناطق الثلاث شعراء كشعراء نجد والحجاز والبحرين لكان الشعر كثيرا ، بيد أن ما وصل من شعر جاهلي ينبئ عن عمق في التجربة والرؤية ، وقدرة فائقة في تطويع اللغة للتعبير عن وقع الوجود على مشاعرهم ووجدانهم ، وإحساس مدهش في التصوير والإيقاع

الموسيقي وكان هذا وحده مقومًا رئيسيا من مقومات الثقافة ، ووسيلة مباشرة للمثاقفة والتفكير والتأمل. ولعل سرعة استجابة العرب جميعاً للقرآن الكريم كانت دليلا على ذلك النضوج العقلي بفعل اللغة ، وكان الشعراء هم الأكثر تدبرا وفهمًا وإحياءً لتلك اللغة ويمكن القول : " إن نفوذ الشعراء الأدبي والسياسي كان كبيرًا غير محدود وهو الذي أعطى اللغة الأدبية أو الفصحى في تعبيرنا الحديث طابعها النهائي وجعل منها المثال المحتذى ، والقصائد التي لدينا من الشعر الجاهلي ذات لغة واحدة رغم أن أصحابها يمثلون قبائل مختلفة ونواحي متعددة من شبه الجزيرة"(٦٥).

وباللغة الشعرية الإيحائة المموسقة بتصويراتها المدهشة استطاع الشعراء أن يعبروا بها عن تجاربهم ومنجزات في الحياة البادية والحاضرة معًا، وعن سير الأمم السابقة وتفاعلات الحياة بكل ما فيها من موجودات ساكنة ومتحركة وقد كان للشعر في ذلك العصر قيمة عظيمة استمدها من سحر بيانه وجودته الفنية ، ومن قبول المجتمع آنذاك له ، وحفظه وروايته مما طبع العرب بأمة البيان ، وتفصيل ذلك أن القبائل كانت تمنح شعراءها مكانة سامية، وكان للكثير منهم قيادةٌ معنوية أو زعامة قبلية سياسية.

وكثر الشعراء وانتشروا في أرجاء الجزيرة العربية وذكر ابن قتيبة أن "المعروفين بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ولو أنفذ عمره في التنقير عنهم، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال"(٦٦).

وما يهم في ذلك أن انتشار الشعر وروايته كان ظاهرة يقوي حضورها المجتمع العربي نفسه فكان حينئذ مكونا ثقافيا قويا ، ولا يستغرب إذا قرئ بيتا

المسيب بن علس اللذين يعبران عن مدى تغلغل القصيدة في وجدان المتلقين، إذ يقول(٦٧):

فلأهـدِينَّ مَعَ الريـاحِ قصـــيـدةً مِنّي مُغلغلــةً إلى القَعقـاع

تـردُ المـيـاهَ فمـا تـزالُ غريـبـةً في القومِ بين تمثُّلٍ وسَـــمـاع

والتغلغل هنا يقتضي فهما عميقا وتأملا مما يجعل المتلقي يتمثلها وينشدها كما أراد لها صاحبها أن تمثل وتنشد ، وكأنها الآسرة التي تأسر مستمعها بما فيها.

والشعر لم ينتشر انتشارًا أفقيا فحسب بل ينتقل عموديًّا في العقول من الآباء إلى الأبناء ثم إلى الحفدة كما نعلم في أسلوب روايته المعروفة حينذاك.

وربما تشغل القبائل بشعر شعرائها لما فيه من فخر ومدح لها أو قدح وهجاء لغيرها ، فقد شغلت قبيلة تغلب بمعلقة عمرو بن كلثوم وكان صغارها وكبارها يرونها ، فهجاهم شاعر بكري بقوله(٦٨):

ألهى بني تغلـبٍ عن كُـلِّ مكرمـة قصـــيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم

يروونهـا أبـدًا مُـذْ كـان أولهم يا لَلرِّجال لشـــعْرٍ غير مَسْـــئُومِ

ويخلص إلى أن الشعر أسهم في تشكيل اللغة أسلوبا وبنية وإيحاءً متجددا وبيانا وإيقاعا وتصويرا مدهشا ، وله الفضل في توحيد العرب على تلك اللغة الراقية واستمرارها متجددة كل حين ، وله القِدح المُعَلى في تنوير العقل العربي وتثقيفه منذ بداياته ، وتعبر مقولة عبد الله بن عباس عن ذلك وهي قوله : " الشعر علم العرب وديوانها فتعلموه "(٦٩) ، وصاغها الناقد محمد بن سلام الجمحي بقوله : " الشعر ديوان علمهم ، ومنتهى حكمهم ، به يأخذون وإليه يصيرون "(٧٠).

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى أن ثمة مكونات ثقافية أثرت في المجتمع العربي قبل الإسلام وطبعته بثقافة فكرية حضارية وهي : تنوع الديانات ، والرسيس الحضاري الذي تشربه ذلك المجتمع ، ومصاقبته لحضارتي الفرس والروم ، وتلك اللغة الشعرية المدهشة ، وقد كان ذلك المجتمع يمور بحركة دائبة عبر الانتجاع لطلب الماء والكلأ ، والحروب الدائمة المعبر عنها بأيام العرب وحج البيت والضرب في الأرض ابتغاء التجارة ، وهي أسباب جعلته دائم البحث عن سبل الحياة والبقاء ، وأثرت في تجربة أبنائه وامتلاكهم خبرة في التأمل والإصرار على التجدد . وكان لتلك المقومات الثقافية نتائج تشف عن أن المجتمع العربي كان يعيش زمنا فكريا حضاريا يمهد لدوره التالي في تأسيس الحضارة الإسلامية بكل ما فيها من أسباب ومعطيات ، وقد تمثلت المظاهر الثقافية لتلك المقومات في :

١- المظاهر المادية وذلك من خلال العمارة العربية في اليمن والحيرة وبتراء والصناعات المختلفة ومنها الأسلحة والحديد والذهب والفضة والمنسوجات والملابس والسفن وغيرها.

٢- كثرة الأسواق في بلاد العرب وهي أسواق تجارية وأدبية ومنها: عكاظ قرب مكة وبصرى وغزة في الشام وصنعاء وعدن والحيرة وحضرموت وهي كثيرة متنوعة.

٣- الشعر والخطب والرسائل والأمثال والحكم ، ويبقى الشعر نتاجا عقليا يدل على عقل عربي يقرأ ويستمتع به ويتذوق ويدهش لما فيه من لغة انزياحية موحية مستفزة مستنفرة.

٤- التصوير القرآني للعقل العربي الذي اكتمل نضوجه قبيل الإسلام ، واستطاع أن يستوعب هذا الدين ومعجزته اللغوية (القرآن) ، وقد وصف القرآن الكريم العرب بأنهم خَصِمُونَ (أي يخاصمون عقليا) ، ودعوته لهم بإعمال العقل والتأمل في آيات الله وفي أنفسهم ، وقد استطاع العرب في زمن قصير بناء حضارة عظيمة كان العقل أحد أركانها المتينة.

الهوامش

(١) د. نور الدين حاطوم وآخرون ، موجز تاريخ الحضـــارة ، مطبعة جامعة دمشـــق ، دمشق ، ١٩٦٣ ، ض٦.

(٢) د. مزاحم علي عشيش البعاج ، المنابع الثقافية للشعر العربي قبل الإسلام (العصر الجاهلي) : دار اليراع للنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠٠٥م ، ص٢٦.

(٣) انظر: ديانات العرب مفصلة : ابن الكلبي ، الأصنام ، تحقيق أحمد زكي ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩١٤م، ٥-٥٧. محمود سليم الحوت . في طريق الميثولوجيا عند العرب . دار النهار للنشر ، ص ١٨ – ١٥٩. د. شوقي ضيف ، العصر الجاهلي، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٠م ، ص٨٩ – ١٠٣.

(٤) سورة البروج ، الآية ٤ – ٨.

(٥) د. عبد الله جبريل مقداد، شعر يهود في الجاهلية وصدر الإسلام ، دار عمار للنشر ، عمان ، ١٩٩٩م ، ص٣٨ ، ٣٩.

(٦) ديوان النابغة , النابغة الذبياني : تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٧٦م, ص٤٩.

(٧) سورة الزُّمر . وانظر : سورة الزخرف ،الآية ٨٧ . سورة يونس ، الآية ٣١.

(٨) سورة الزمر . وانظر : سورة يونس , الآية ١٨.

(٩) ديوانه ، تحقيق د. محمد يوسف نجم ، ط٢ ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٠م ، ص٥.

(١٠) سورة نوح .

(١١) انظر : سورة النمل ، الآية ٢٤.

(١٢) سورة فصلت.

(١٣) سورة النجم ٤٩.

(١٤) د. أحمد الشايب ، تاريخ الشعر السياسي ، مكتبة النهضة ، مصر ، ط ٣ ، ١٩٦٢م ، ص٢٤.

(١٥) حمزة فتح الله ، المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية ، المطبعة الأميرية ، ط١، ١٣١٢هـ ، ص٢٢٧.

(١٦) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، دار النهضة ، بغداد ، ١٩٦٩م ، ١ : ٢٦ .

(١٧) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، مصر ١٩٥٠م ، ١: ٤٢.

(١٨) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٤٠م ، ١: ٢٢٩.

(١٩) جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ، دار الهلال ، ١٩٥٧م ، ص١٥٦.

(٢٠) انظر: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، دار الجيل ، بيروت ، ط٧ ، ١٩٨٨م ، ص١٨.

(٢١) سورة سبأ .

(٢٢) سورة الشعراء .

(٢٣) سورة الشعراء .

(٢٤) سورة الفجر .

(٢٥) ديوان النابغة ، تحقيق كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص٢٨. القيل : الملك من ملوك حمير ، وتُبّع لقب لكل ملك من ملوك حمير وحضرموت.

(٢٦) ديوان لبيد ، تحقيق د. إحسان عباس ، وزارة الإرشاد الكويتية ، الكويت ، ١٩٩٢، ص١٠٨.

(٢٧) ديوان الأعشى ، تحقيق د. محمد محمد حسين ، المطبعة النموذجية ، مصر ، ١٩٥٠م ، ص٢٨١. قُذَار: أحمر عاد ، وكان رمز الشؤم.

(٢٨) ديوان عدي بن زيد العبادي ، تحقيق عبد المعين الملوحي ، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ١٩٦٦م ، ص١٢٢.

(٢٩) المفضل الضبي ، المفضليات ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، ط٥ ، مطبعة دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٦، ص٤٢٦.

(٣٠) ديوان عمرو بن قميئة ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ١٩٦٥م ، ص١٨٨. أملاك : جمع مَلِكٍ نصر: هو نصر بن ربيعة جد اللخْميين.

(٣١) ديوانه ، ص ١٠٧ والمعقة : العقوق .

(٣٢) جُرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ، ١: ١٠١.

(٣٣) المرجع السابق ، ص ١: ١٠١.

(٣٤) أحمد أمين ، فجر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ١٠ ، ١٩٦٥، ص١٧.

(٣٥) خليل الرفوع ، الأقوام غير العربية في الشعر الجاهلي ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، ١٩٩٣م ، ص٤٥ – ٤٨.

(٣٦) أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تحقيق د. نصرت عبد الرحمن ، عمان ، مكتبة الأقصى ، ١٩٨٢م ، ١: ٣٢٨.

(٣٧) العقد الفريد ، ٢ : ٩٢.

(٣٨) العقد الفريد ، ١ : ٢٣٩ ، ٢٤٠. نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، ٢: ٢٤٠.

(٣٩) صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، تحقيق السيد محمد بحر العلوم ، النجف ، منشورات المكتبة الحيدرية . ١٩٦٧م ، ص٦٣. وانظر: ابن أبي أصيبعة أحمد بن القاسم السعدي ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق نزار رضا ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٥م ، ص١٦١.

(٤٠) أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، دار الفكر ، بيروت ١: ٢٥.

(٤١) محمد بن حبيب بن أمية البغدادي ، المحبر ، اعتنت بتصحيحه د. إيلزة ليختن ، حيدر أباد مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٤٢م ، ص٢٦٥.

(٤٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، قدم لها وعلق عليها طه عبد الرؤوف ، دار الجيل ، بيروت ، ١: ١٩٨.

(٤٣) ابن الأثير ، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ٥: ٤٠٢.

(٤٤) ابن النديم ، الفهرست ، المكتبة التجارية ، ١٣٤٨هـ ، ص١١٤.

(٤٥) أبو فرج الأصـــفهاني ، الأغاني ، بيروت ، دار الثقافة ، ط ٢ ، ١٩٥٧م ، ٢ : ١٢٥. ٣: ٢٢٥-٢٣٥. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار سويدان ، بيروت ،١٩٦٧م ، ٢: ١٩٣-٢١٢. العقد الفريد ، ٦: ٩٦-١٠٢. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٢ : ٢٤٩.

(٤٦) انظر : خليل الرفوع ، الأقوام غير العربية في الشعر الجاهلي ، ص ٤٥ – ٧٧ .

(٤٧) ديوانه ، ص٣٠٣.

(٤٨) ديوانه ، ص ٢٦٨. الهدي : المرأة تُهدى لزوجها ، الأعجم : الطمطمي . الذي لا يكاد يفصح في حديثه .

(٤٩) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٤: ٣٨.

(٥٠) تاريخ بلاد الشام من ما قبل الإسلام حتى بداية العصر الأموي ، مطبعة الجامعة الأردنية ، عمان : ١٩٩٠م ، ص٦٥ – ٧٠.

(٥١) نولدكه . أمراء غسان ، ص ٣.

(٥٢) جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام . ١: ١٨٨.

(٥٣) نولدكه ، أمراء غسان , ص ١١.

(٥٤) لويس شـيخو، شـعراء النصـرانية قبل الإسـلام ، دار الشـرق ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٦٧م ، ص٨٠.

(٥٥) الأصفهاني ، الأغاني ، ٢: ٨٥.

(٥٦) أبو علي القالي ، ذيل الأمالي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ٢٠٠. نشـــوة الطرب ، ١: ٣٢٨.

(٥٧) فجر الإسلام ، ص ١٥.

(٥٨) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٢: ٦٥٨.

(٥٩) ديوان عدي بن زيد العبادي، ص ١٢٥.

(٦٠) ديوان ســـحيم عبد بني الحســـحاس ، تحقيق عبد العزيز الميمني ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، ص١٨.

(٦١) ديوان علقمة الفحل ، تحقيق لطفي الصـقال ودرية الخطيب ، دار الكتاب العربي ، ط١ ، ١٩٦٩م ، ص٦٤.

(٦٢) د. عائشة عبد الرحمن ، لغتنا والحياة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٦٩م ، ص٣٠-٣٣.

(٦٣) د. طاهر أحمد مكي ، امرؤ القيس أمير شـــعراء الجاهلية حياته وشـــعره ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٨م ، ص٤٣.

(٦٤) د. شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص١٣٤.

(٦٥) د. طاهر أحمد مكي ، امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية حياته وشعره ، ص٤٢.

(٦٦) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٨م ، ١: ٦٠.

(٦٧) المسيب بن علس ، تحقيق : د. أنور أبو سويلم ، منشورات جامعة مؤتة ، الأردن ، ط١، ص١١٤.

(٦٨) أبو فرج الأصفهاني ، الأغاني ، تحقيق وإشراف لجنة من الأدباء ، الدار التونسية للنشر ، بيروت ١٩٨٣م ، ١١: ٤٨، ٤٩.

(٦٩) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تقديم خليل شرف الدين ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، ٥: ١٧١.

(٧٠) ابن سـلام الجمحي طبقات فحول الشـعراء ، تحقيق محمود محمد شـاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ،١٦٧٤م ، ١٥: ٢٤.

المصادر والمراجع

١. ابن الأثير ، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٢. الأسد ، ناصر الدين ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، دار الجيل ، بيروت ، ط٧ ، ١٩٨٨م.

٣. أبو الفرج الأصفهاني ، علي بن الجسين بن محمد ، الأغاني ، بيروت ، دار الثقافة ، ط ٢ ، ١٩٥٧م.

٤. ابن أبي أُصَيْبِعَة ، أحمد بن القاسم السعدي ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق نزار رضا ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٥م.

٥. الأعشى ، ميمون بن قيس ، الديوان ، تحقيق د. محمد محمد حسين ، المطبعة النموذجية ، مصر ، ١٩٥٠م.

٦. أمين ، أحمد ، فجر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ١٠ ، ١٩٦٥.

٧. الأندلسي ، صاعد ، طبقات الأمم ، تحقيق السيد محمد بحر العلوم ، النجف ، منشورات المكتبة الحيدرية . ١٩٦٧م ،

٨. بروكلمان ، كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، مصر ١٩٥٠م.

٩. البعاج ، مزاحم علي عشيش ، المنابع الثقافية للشعر العربي قبل الإسلام (العصر الجاهلي) : دار اليراع للنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠٠٥م.

١٠. الجمحي ، محمد بن سلام ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ،١٦٧٤م.

١١. حاطوم ، نور الدين وآخرون ، موجز تاريخ الحضـــارة ، مطبعة جامعة دمشق ، دمشق ، ١٩٦٣.
١٢. ابن حبيب ، محمد ، المُحَـــبَّـــر ، اعتنت بتصحيحه د. إيلزة ليختن ، حيدر أباد مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٤٢م .
١٣. ابن حَجَر، أوس ، الديوان، تحقيق د. محمد يوسـف نجم ، ط٢ ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٠م.
١٤. الحوت ، محمود سليم . في طريق الميثولوجيا عند العرب ، دار النهار للنشر .
١٥. الخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي ، تاريخ بغداد ، دار الفكر، بيروت.
١٦. الرفوع ، خليل ، الأقوام غير العربية في الشـــعر الجاهلي ، رســـالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، ١٩٩٣م.
١٧. زيدان ، جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ، دار الهلال ، ١٩٥٧م.
١٨. عبد بني الحَسْحاس، سُحَـيْـم ، الديوان ، تحقيق عبد العزيز الميمني ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٥م.
١٩. ابن سعيد الأندلسي ، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تحقيق د. نصرت عبد الرحمن ، عمان ، مكتبة الأقصى ، ١٩٨٢م.
٢٠. الشـايب ، أحمد الشـايب ، تاريخ الشـعر السـياسـي ، مكتبة النهضـة ، مصر ، ط ٣ ، ١٩٦٢م.
٢١. شِيخو، لويس ، شعراء النصرانية قبل الإسلام ، دار الشرق ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٦٧م.

٢٢. الضَّبِّي ، المُـــفضل بن محمد بن يعلى الضبي، المفضليات ، تحقيق أحمد محمد شـــاكر وعبد الســـلام محمد هارون ، ط٥ ، مطبعة دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٦م.
٢٣. ضيف ، شوقي ، العصر الجاهلي، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٠م.
٢٤. الطَّـــبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار سويدان ، بيروت ،١٩٦٧م.
٢٥. العاملي ، لبيد بن ربيعة ، الديوان ، تحقيق د. إحســـان عباس ، وزارة الإرشاد الكويتية ، الكويت ، ١٩٩٢م .
٢٦. العِبَادي ، عَدي بن زيد العبادي ، الديوان ، تحقيق عبد المعين الملوحي ، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ١٩٦٦م.
٢٧. عبَّاس ، إحســـان ، تاريخ بلاد الشـــام من ما قبل الإســـلام حتى بداية العصر الأموي ، مطبعة الجامعة الأردنية ، عمان : ١٩٩٠م.
٢٨. عبد الرحمن ، عائشـــة ، لغتنا والحياة ، معهد البحوث والدراســـات العربية، ١٩٦٩م.
٢٩. ابن عبد ربه ، أبو عمر أحمد بن عبدربه ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٤٠م .
٣٠. ابن عَلَس ، المُسَـيَّب ، تحقيق : د. أنور أبو سويلم ، منشورات جامعة مؤتة ، الأردن ، ط١.
٣١. علقَمة الفَحْل ، علقمة بن عبَدَة التميمي، الديوان ، تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب ، دار الكتاب العربي ، ط١ ، ١٩٦٩م.
٣٢. علي ، جواد، المفصـــل في تاريخ العرب قبل الإســـلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، دار النهضة ، بغداد ، ١٩٦٩م.

٣٣. فتح الله ، حمزة ، المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية ، المطبعة الأميرية ، ط١ ، ١٣١٢هـ.
٣٤. القالي ، أبو علي إسماعيل بن القاسم ، ذيل الأمالي ، دار الكتب العلمية ، بيروت.
٣٥. ابن قُتَيبة ، عبدالله بن عبد المجيد بن مسلم ، الشعر والشعراء ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٨م.
٣٦. قميئة، عمرو بن قَمِيئة بن سعد بن مالك ، الديوان ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ١٩٦٥م.
٣٧. ابن الكَلبي ، محمد ابن الكلبي ، الأصنام ، تحقيق أحمد زكي ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩١٤.
٣٨. مِقداد ، عبد الله جبريل ، شعر يهود في الجاهلية وصدر الإسلام ، دار عمار للنشر ، عمان ، ١٩٩٩م.
٣٩. مكي ، طاهر أحمد ، امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية حياته وشعره ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٨م.
٤٠. النَّابغة الذبياني، زياد بن معاوية ، الديوان ، تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٧٦م.
٤١. ابن النَّديم ، محمد بن إسحاق، الفهرست ، المكتبة التجارية ، ١٣٤٨هـ.
٤٢. ابن هشام ، عبدالملك بن محمد ، السيرة النبوية ، قدم لها وعلق عليها طه عبد الرؤوف ، دار الجيل ، بيروت.